التطبيب التنصيري في مزاب في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وموقف السكان منه

Christian medicine in M'zab in the late nineteenth century and the beginning of the twentieth century and the population's position on it

1– ط.د الجعدي رضوان*، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة الجزائر. مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية (الجزائر)

redouane.djaadi@ensb.dz

2– أ. د بن عمر الحاج موسى، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة الجزائر. (الجزائر)

benaoumeur.hadjmoussa@ensb.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/10 تاريخ القبول: 2024/04/20 تاريخ النشر: 2024/06/27

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقصي الدور التطبيبي الذي اضطلعت به جمعية مرسلي إفريقيا التنصيرية في منطقة مزاب بعد تطور علم الطب في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، واستعماله كأحد أهم الوسائل التي اعتمدت عليها الإدارة الفرنسية لاختراق المجتمع الجزائري ولتطبيع علاقتها به، وقد تعاونت بشكل كبير مع الحركة التنصيرية على فتح المستشفيات والمستوصفات للجزائريين لتحقيق أهدافها الاستعمارية، و تبعا لذلك انتشر المنصرون في كل مناطق الجزائر، مع تركيز أكثر على بعض الجهات التي اعتقدوا أنها ملائمة أكثر لنشاطهم كمنطقة القبائل والأوراس ومزاب والهقار، و اشتغلوا وفق محورين مهمين هما التعليم و التطبيب، وتسعى الدراسة أيضا الى البحث عن الأهداف الخفية

*- المؤلف المرسل

للحركة التنصيرية من وراء تكثيف نشاطها التطبيبي في منطقة مزاب من خلال فتح مستشفى وعدة مستوصفات للأهالي، مجندة في ذلك الأخوات البيض للعمل الميداني في محاولة لاختراق النواة الصلبة لمجتمع مزاب، وللتغلغل داخل الأوساط النسائية الأكثر تحصينا، وخلافا لمأمولهم كانت الحصيلة لسنوات طويلة من النشاط التطبيبي للمنصرين ضئيلة، وغير متناسبة مع ضخامة الجهد المبذول.

كلمات مفتاحية: جمعية مرسلي افريقيا، الآباء البيض، التطبيب، التنصير، مزاب.

Abstract:

This study aims to investigate the medical role played by the Christian Missionaries of Africa Association in the M'zab region after the development of medical science in Europe during the nineteenth century and its use as one of the most important means upon which the French administration relied to penetrate Algerian society and normalize its relationship with it. It actively cooperated with the Christian movement on Hospitals and dispensaries were opened for Algerians to achieve their colonial goals. Accordingly, missionaries spread throughout all regions of Algeria.

Keywords: African Missionaries Association; White Fathers; Medicalization; Christianization; M’zab.

- **مقدمة:**

أثر الطب الذي انتعش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الديموغرافيا، وقلل التطور السريع في علم الطب من نسبة الوفيات، فاستقرت نسب التزايد السكاني ثم ارتفعت بعدما عُمم العلاج الطبي في المدن والأرياف، وقد استغلت الإدارة الفرنسية في الجزائر الطب والأطباء لتعزيز مشروعها الاستعماري، ولتحسين الصورة السيئة التي علقت بأذهان الجزائريين حول الاحتلال الفرنسي وجيشه، وعلى نفس الخط عملت الجمعيات التنصيرية، لا سيما مؤسسة الآباء والاخوات البيض، وأصبح الطب عاملا فعالا للتغلغل في أوساط السكان الجزائريين.

إذا كان القرن التاسع عشر هو قرن توسع الاستعمار الأوربي في قارتي افريقيا وآسيا فإنه أيضا قرن انتشار التنصير المسيحي في القارتين وفي العالم، ذلك لأن الحركة التبشيرية سارت في ظل التوسع الاستعماري واحتمت بحراب الجيوش الغازية، وكانت تقدم خدماتها الصحية والتعليمية لضحايا

الحملات العسكرية وللسكان المحليين، ضمن مشروع تنصيري طموح وواسع، وجسد الكاردينال شارل لافيجري Charles Lavigerie فكرة التنصير النشيط والمكثف في مختلف مناطق الجزائر وخارجها، وأسس مؤسسة مرسلي إفريقيا les Missionnaires d'Afrique، بفرعيها الآباء البيض والأخوات البيض التي حازت السبق في العمل التنصيري، واستطاع أن يجند عدد معتبر من المبشرين الكاثوليك لتحقيق أهدافه الدينية، وأن يكرس لمشروعه أموالا طائلة جمعها من مصادر مختلفة لنشر العقيدة الكاثوليكية في الجزائر وفي افريقيا. تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عن الإشكاليات التالية:

- كيف استغلت الحركة التنصيرية الخدمات الطبية للتغلغل في مدن وأرياف الجزائر؟
- ولماذا ركزت على مناطق محددة مثل بلاد القبائل والأوراس ومزاب؟
- وماهي أهداف الحركة التنصيرية من بناء مستشفى ومستوصفات للأهالي في منطقة مزاب؟
- وهل نجحت في تحقيق أهدافها؟

1. تعريفات:

1.1. التطبيب :

طبَّبَ يُطبِّب، تطبيبًا، فهو مُطبِّب، والمفعول مُطبَّب، طبَّب المريضَ: طبّه، عالجه وداواه[1]، عرفت الموسوعة الفقهية الكويتية التطبيب بما يلي: للتطبيب في اللغة معان، منها المداواة، يقال طبب فلان فلانا أي داواه، وجاء يستطب لوجعه، أي يستوصف الأدوية أيها يصلح لدائه، والطب: علاج الجسم والنفس، ورجل طب: طبيب: عالم بالطب، ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي[2].

2.1. تعريف التنصير:

1.2.1. لغة:

التنصر: الدخول في النصرانية، ونصره: جعله نصرانيا[3]، ويستعمل بعض الباحثين أحيانا مصطلح التبشير ويقصدون به التنصير، والتبشير لغة: هو إخبار فيه سرور، والاسم: بشارة بكسر الباء وبضمها.

---

1 أحمد مختار عبد الحميد عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، ج2، 2008، ص 1382

2 وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، **الموسوعة الفقهية الكويتية**، دار السلاسل، ط02، الكويت،1989، ج12، ص 135

3 جمال الدين محمد ابن منظور، **لسان العرب**، ج 5، دار صادر، ط3، بيروت، 1994، ص 212

وتدور كل المعاني التي وردت في معاجم اللغة حول الإخبار بالسرور إطلاقاً، أو الإخبار بالشر تقييداً، والبشارة في عرف النصرانية هي الإنجيل، والبعثة التبشيرية هي هيئة دينية تدعو إلى النصرانية[1]

2.2.1. اصطلاحاً:

عرفت الكاتبة الفلسطينية أمل عاطف محمد الخضري التنصير بما يلي: هو حركة صليبية سياسية استعمارية منظمة، تتخذ من الدين ستاراً، تهدف إلى إخراج المسلمين وغيرهم من دينهم، وإدخالهم في النصرانية، أو تغريبهم، ودفعهم إلى الإلحاد، واللادينية، واللاأخلاق، وفق منهج مدروس متكامل قائم على استغلال جميع الوسائل المادية والمعنوية المتاحة في جميع مجالات الحياة[2].

2. نشاط الحركة التنصيرية في الجزائر:

تمهيدا لموضوعنا نورد فيما يلي لمحة عن النشاط التنصيري المسيحي في الجزائر وأعمال الأساقفة الذين تولوا رئاسة كنيسة الجزائر.

1.2. جذور التنصير في الجزائر:

بدأ انتشار المسيحية في شمال افريقيا في أواخر القرن الثاني الميلادي[3]، ثم تراجع التنصير بعد إسلام أغلب السكان، وظهر من جديد بداية من القرن الثاني عشر الميلادي، وكان المسيحيون بمختلف مشاربهم يرون أن الفتح الاسلامي لشمال افريقيا جريمة لا تغتفر كما أنه سبب انقطاع صلة إفريقيا المسيحية بالكنيسة الكاثوليكية وتعطيل المدنية بها[4]، وقد استغلت الكنيسة الكاثوليكية عدة وسائل لنشر الدين المسيحي في الجزائر قبل الغزو الفرنسي أهمها: الحروب الصليبية، وإرسال المبشرين تحت ذريعة السعي لافتداء الأسرى[5] ، و كان الوجود الديني المسيحي الفرنسي في الجزائر في بداية الاحتلال محدودا، فحتى عام 1838، لم ينشط في الجزائر سوى أربعة كهنة مقابل 60 ألف جندي فرنسي، و20

---

1 أمل عاطف محمد الخضري، **التنصير في فلسطين في العصر الحديث**، رسالة ماجستير في العقيدة الإسلامية بكلية أصول الدين، الجامعة الاسلامية غزة، فلسطين، 2004، ص2

2 نفسه، ص9

3 المهدي البوعبدلي، **الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي: متفرقات**، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص 159

4 نفسه، ص 165

5 محمد الطاهر وعلي، **التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904**، منشورات دحلب، الجزائر، 2009، ص 27

ألف مستوطن، علاوة على بعض القساوسة النافذين الذين سمح لهم بممارسة وظائفهم الدعائية[1]، وقد ساهمت عدة أسباب في تأخر وصول التنصير المسيحي الى الجزائر نسبيا، أهمها:

- الخلاف بين الملك لويس فيليب والبابا حول من يحوز صلاحية تعيين رجال الدين.
- انشغال السلطة الفرنسية بالغزو ومحاولة إخماد المقاومات الجزائرية المختلفة.
- تأثر عدد من العسكريين الفرنسيين بفكر الأنوار الأوروبي المعادي لرجال الدين.[2]
- التخوف من رد فعل الجزائريين ضد السلطة الفرنسية، لاسيما وأن الاحتلال لم يوطد سيطرته على البلاد بعد[3].

توصل الملك لويس فيليب والبابا غريغوار الى اتفاق يقضي بإنشاء أسقفية في الجزائر وتعيين المطران أنطوان ديبيش Antoine dupuch (1838-1845) كأول أسقف يتولى رئاستها وقد تأسست في 8 أوت 1838.

2.2. أساقفة الجزائر وأعمالهم التنصيرية 1838-1892:

كان أول أسقف للكنيسة الكاثوليكية في الجزائر هو المطران أنطوان ديبيش، وعرف بحماسه الشديد لنشر الديانة المسيحية في الجزائر، وأشرف على دير اسطاوالي للرهبان سنة 1843 ليكون منطلقا لربط المبشرين بخدمة الأرض[4]، و قد نشطت في الجزائر في عهده تسع جمعيات تنصيرية أهمها جمعية الآباء اليسوعيين(الجزويت) وأخوات العقيدة المسيحية وأخوات القديس فانسان ديبول[5]، وحل محل ديبيش على رأس أسقفية الجزائر الأسقف لويس أنطوان بافي Louis-Antoine Pavy (1846-1866) الذي وصل الى الجزائر في 10 جويلية 1846، وحاول تجنب الفشل الذي مني به سلفه في عدة مدن جزائرية كبرى كالجزائر وقسنطينة وعنابة، ووجه عنايته إلى أرياف شرق الجزائر، محاولا استغلال فقر

1 عبد الحميد زوزو، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900**، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 241

2 خديجة بقطاش، **الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871**، منشورات دحلب، الجزائر، 2007، ص 50

3 مزيان سعيدي، **النشاط التنصيري للكاردينال لافيجري في الجزائر 1867-1892**، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص 15

4 نفسه، ص 7

5 محمد الطاهر وعلي، مرجع سابق، ص36

السكان وجهلهم[1]. وجاءت إلى الجزائر في عهده جمعيتان تنصيريتان وهما إخوان العقيدة المسيحية وإخوان المدارس المسيحية.

تميز عهد بافي بالاضطرابات والتضييق على التعليم الاسلامي وتوسع الثورات الشعبية والهجرة الى المشرق، وكثرة التعديلات الإدارية التي باشرتها السلطة الاستعمارية، ووضع الأسقف بافي حجر الأساس لمشروع بناء كنيسة السيدة الإفريقية في العاصمة[2] ، ثم عين المطران شارل لافيجري (1867-1892) في أواخر سنة 1866 كأسقف للجزائر و بعد سنوات ارتقى الى رتبة كاردينال، وجاء من فرنسا يحمل أفكارا تنصيرية جديدة وحماسا متقدا، ويمكن اعتباره رائد التنصير في الجزائر وإفريقيا وأشهر منصر أوروبي في القرن التاسع عشر[3]، وقد نهز الكاردينال لافيجري الفرصة لما حلت المجاعة بالجزائريين سنتي 1867 و1868 ليعزز العمل التنصيري في أوساط الجزائريين، واستغل معاناة الكثير من المرضى والجائعين فقدم لهم يد المساعدة باسم الصليب وفرنسا، وجمع حوالي ألف وثمانمائة طفل مشرد ومريض ووزعهم على ملاجئ أنشأها في العاصمة وفي المناطق القريبة منها، بهدف التكفل بهم وتنشئتهم على التعاليم المسيحية، وآمن طيلة مسيرته التنصيرية بالرأي القائل أن إدماج الجزائريين عن طريق تنصيرهم أجدى وأرسخ من الإدماج بالقوة والإكراه[4].

أسس لافيجري جمعية المرسلين إلى إفريقيا Société des Missionnaires d'Afrique التي سميت كذلك بالآباء البيضLes Pères Blancs، سنة 1868 في فترة المجاعة التي أصابت الجزائريين، وعرفوا بارتداء الثوب الأبيض انسجاما مع الزي التقليدي الجزائري، وأضيف الى المؤسسة فرع خاص بالإناث سنة 1869، وسمي بالأخوات البيض، كان العدد الأكبر من منتسبي مؤسسة مرسلي إفريقيا Société des Missionnaires d'Afrique من الفرنسيين، فمن بين 6160 عضو يوجد 4500 فرنسي، أي بنسبة 75%[5]، وقد حددت الجمعية منذ انشائها أهدافا محددة وهي تنصير السكان الأفارقة، ونشر المسيحية في العالم.

3.2. وسائل التنصير:

---

1 خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص 66

2 داود عمر، **الحركة التبشيرية في الجزائر: نشاط الآباء والأخوات البيض في غرداية أنموذجا: مقاربة سوسيو-تاريخية**، دار نزهة الألباب، الجزائر، 2016، ص31

3 مزيان سعيدي، مرجع سابق، ص 16

4 خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص 112

5 Jean Babtiste Piolet, **Nos Missions et Nos Missionnaires**, Librairies Bloud et Cie, Paris,1904, p16

إن الغزو التنصيري للعالم استخدم وسائل متنوعة للوصول إلى أهدافه، وطور أساليبه باستمرار، سعيا للطرائق المثلى التي تحقق انتشار المسيحية في مختلف مناطق العالم، وكان التعليم والتطبيب هما الوسيلتان الأكثر استعمالا من قبل الإرساليات التنصيرية المتنوعة، لأثرهما المباشر في المجتمعات المستهدفة، فالوسيلة الأولى تستهدف الصغار الذين يمكن تطويعهم وتوجيههم من خلال التعليم الى ما يخدم أغراض الجمعيات التنصيرية، أما الوسيلة الثانية فتقرب المواطن البسيط إلى المبشرين من خلال العناية الطبية المتميزة والاتصال المباشر بين المُنصر والمريض[1].

1.3.2. التعليم:

يرى الكثير من الباحثين أن التعليم هو الوسيلة الأولى للتنصير، ففي مرحلة الطفولة يكون الفرد صفحة بيضاء وعجينة طرية يمكن تشكيلها بسهولة، وتعد الطفولة من أخطر مراحل حياة الإنسان، ففيها تبنى الشخصية وتصقل العادات وتتكون الآراء وتتحدد معالم الشخصية وأبعادها الثقافية والنفسية، وتوضع فيها بذرة الفكر والعقيدة والميول وتغرس الأفكار والآراء التي يراد لها أن تثمر لاحقا حين يشب الإنسان ويستقل برأيه[2]، ولا عجب أن كان إنشاء المدارس هو الهاجس الأول للإرساليات التنصيرية في الجزائر وغيرها، ويركز المبشرون غالبا في مستهل عملهم على أبناء الفقراء، ثم اليتامى، مستخدمين أساليب إغراء متنوعة لاستقطاب أبناء الجزائريين إلى مدارس المبشرين كتقديم الحلوى والنقود ومختلف الهدايا للأطفال وتوفير وسائل اللعب وإقامة المعارض[3]

2.3.2. التطبيب:

تعززت أهمية العلاج كأداة فعالة للتنصير في الربع الأخير من القرن 19 م، عندما تكونت جمعيات طبية في أوروبا وأمريكا تخصصت في تكوين الأطباء والممرضين من الجنسين للعمل في البعثات التنصيرية، وقد قال أحد الأطباء المنصرين" إن أهداف هذا النوع من الإرساليات هو إضفاء روح الشفقة الدينية على بعثات التنصير الحديثة وتأكيد حقيقة القرابة المشتركة بين افراد الاسرة العالمية، ثم تمهيد الطريق للإنجيل إلى قلوب بني البشر، وأخيرا معالجة الناس من الأمراض[4]، فالخدمات الطبية تمس شرائح مختلفة من المجتمع، وأثرها في النفوس عميق، لأنها تخفف الآلام وتشفي الأسقام. وقد استعمل المبشرون

---

1 محمد الطاهر وعلي، مرجع سابق، ص79

2 محمد عبد الرحيم الزيني، **الاستشراق والتنصير: رؤية موضوعية**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب، سلطنة عمان، 2010، ص338

3 محمد الطاهر وعلي، مرجع سابق، ص84

4 عبد العزيز الفهد، **التنصير الطبي الخفي في البلاد الإسلامية**، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2005، ص 27

أسلوبين لعلاج المرضى: الأول: استقطاب المرضى الجزائريين وتشجيعهم على العلاج في مستشفيات ومستوصفات المبشرين بتقديم مختلف الاغراءات وبتسهيل اجراءات الدخول للمستشفيات، و الثاني: التنقل إلى بيوت المرضى وعلاجهم فيها، خاصة الأطفال والنساء[1] .

3.3.2. وسائل أخرى:

حاول المنصرون استعمال أي وسيلة يمكن أن تحقق أهدافهم، وكانت الأعمال الخيرية بمثابة الطعم الذي حاولت به الجمعيات التنصيرية تقريب السكان منها، وتنوعت هذه الأعمال بين رعاية اليتامى وبناء ملاجئ لهم كما حدث خلال مجاعة 1867، ومساعدة المقبلين على الزواج، ومنح الهدايا للسكان، لا سيما الأطفال منهم، وتقديم الصدقات والمعونات المادية للفقراء والإحسان إليهم[2].

3. النشاط التنصيري في منطقة مزاب:

مثلت الصحراء بالنسبة للحركة التنصيرية فضاء مثاليا لنشر الدين المسيحي وطريقا لبلاد السودان الغربي، فبساطة السكان واكرامهم للضيف، وتوزعهم على رقعة شاسعة من الأرض تعتبر عوامل ملائمة للنشاط التنصيري.

1.3. الصحراء الجزائرية طريق مفتوح إلى إفريقيا:

خطط الكاردينال لافيجري لتوسيع نشاطه التنصيري إلى ما وراء الصحراء الجزائرية وصولا الى إفريقيا السوداء، التي يعيش فيها مليونا نسمة اعتقد لافيجري أنها تنتظر الهداية المسيحية، لذلك فإن تأمين الصحراء وتهدئتها لفتح الطريق إلى إفريقيا أمام التنصير هو هدف رئيسي ينبغي التعاون على تحقيقه بين الكنيسة والسلطة الفرنسية، وهو ما تم بعد ذلك[3]، وقد اعتبر لافيجري أن حملته التنصيرية بالجزائر ترمي الى استعادة النفوذ المسيحي في المنطقة، الأمر الذي يعتبر واجبا لا يمكن التفريط فيه[4]، ولتأمين الطريق في الصحراء إلى ما ورائها، يجب إنشاء مراكز تنصيرية متقدمة لدراسة طبيعة المنطقة وسكانها، وبعد أن أسست عمالة الصحراء والسودان عام 1868[5]، بدأ لافيجري في تنفيذ مشروعه بإرسال ثلاث من الأخوات البيض الى الأغواط في ديسمبر 1870، ولم يستطعن تحمل قساوة مناخ المنطقة، فأمرهن

---

1 محمد الطاهر وعلي، مرجع سابق، ص87

2 نفسه، ص92

3 العربي اسماعيل، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص110

4 مزيان سعيدي، مرجع سابق، ص 337

5 Claire Fredj, "Soigner les populations au Sahara : l'hôpital mixte de Ghardaïa (1895-1910) », Dans Histoire et missions chrétiennes 2012/2 (n° 22), P 59

بالرجوع إلى العاصمة، ولم يثن فشل هذه المحاولة لافيجري عن مواصلة مشروعه، فأرسل أبوين يسوعيين يجيدان اللغة العربية إلى الأغواط بعد فترة قليلة، وهما الأبوان روشيRocher وأوليفيOlivier، وكان هدفه من ذلك هو:

- التأطير الديني للمستوطنين والعسكريين الفرنسيين المقيمين في المنطقة.
- السعي إلى التقرب من القبائل المحلية تمهيدا لتأسيس مراكز تنصيرية في مختلف مناطق الصحراء الجزائرية .

عين الأب شارمتان Charmetin رئيسا لمركز الأغواط، الذي أريد له أن يكون مقرا رئيسيا لإرسالية تنصيرية واسعة في الصحراء وإفريقيا، وقد زار شارمتان غرداية في خريف سنة 1872، ولم تكن بعد محتلة من طرف الجيش الفرنسي، وكتب عدة تقارير عن رحلته تلك التي استغرقت ثلاثين يوما، استعرض فيها نظام حياة السكان، ونشاطهم التجاري والاقتصادي[1]، وقد استعملت نفس الأساليب التي طبقت في منطقة القبائل وفق توجيهات لافيجري المتمثلة في أولوية كسب الثقة وتطويع القلوب [2].

2.3. مزاب في نظر المنصرين:

عمم المنصرون نشاطهم على مختلف مناطق الجزائر وفق منهجية توظف التاريخ و العادات والثقافة لخدمة أهداف التنصير، و ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نظريات عنصرية تبناها منظرون سياسيون و عسكريون استعماريون، تركز على استغلال الفوارق التي يعتقد هؤلاء الاستعماريين أنها موجودة بين العرب والبربر، و حاولت الحركة التنصيرية استغلال هذه الأفكار و الرؤى، و آمنت بأن هنالك اختلافات جوهرية بين البربر والعرب يمكن البناء عليها، واختراق مجمل المنظومة الاجتماعية للشعب الجزائري، و لذلك ضاعفت جهودها في المناطق التي يسكنها الناطقون بالبربرية، كالقبائل والأوراس و مزاب والهقار.

كان تصور المبشرين عن مزاب بعد مختلف رحلاتهم إليه، و بعدما جمعوه من معلومات من مختلف المصادر يشبه الى حد ما التصور الذي ساد في تلك الفترة عن منطقة القبائل، و الذي يسميه المؤرخ شارل روبير أجرون الأسطورة القبائلية[3] Mythe Kabyle، و هو أن خلقة هذا الشعب وسجاياه لاتزال تضرب جذورها في المسيحية الأولى التي سادت شمال أفريقيا قبل دخول الاسلام إليه، فرغم

---

1 مزيان سعيدي، مرجع سابق، ص340

2 نفسه، ص341

3 Charles Robert Ageron, **Les Algériens musulmans et la France (1919-1871)**, Presses Universitaires de France, Paris, 1968, p267

الاضطهاد الطويل استطاع أن يحفظ شيئا من التقاليد والممارسات الكاثوليكية القديمة، و بدا لهم أن إعادة الأمازيغ إلى ديانتهم السابقة أمر ممكن بعد أن تم إجبارهم على الإسلام الذي ليس لهم منه إلا الشهادتين، فقوانينهم ما هي إلا بقايا من الإرث الكاثوليكي[1]. وهذه الرؤية تفسر النشاط الحثيث الذي أبداه هؤلاء المبشرون في مهمتهم التنصيرية في مزاب، وفي منطقتي القبائل والأوراس، وفي منطقة الهقار بعد ذلك، وقد جاء التوصيف التالي لمزاب والمزابيين في أحد يوميات الآباء البيض: "فهذا العرق المزابي جنس غريب جدا، إنه يمثل طائفة مهرطقة مقارنة بالطوائف الأرثوذكسية الأخرى في الإسلام...، وقد لجأ المزابيون الى واحدة من أكثر مناطق الصحراء قفرا لحفظ استقلالهم[2]، وهناك نجحوا بفضل المثابرة والعمل الجاد في إنشاء واحات مهمة بالقرب من المدن السبع التي يسكنونها، والتي تشكل تكتلًا بشريا يقارب 40.000 نسمة، أي أكبر تجمع في الصحراء" ، وقد رأى المنصرون في مدينة غرداية بسكانها العشرين ألفا مركزا تجاريا وبشريا مهما يستقطب سكان الصحراء المحيطة بها، وبدت لهم المدينة بأهميتها الجغرافية والبشرية والتجارية مكانا مناسبا بامتياز لنشاطهم التنصيري[3].

3.3. المحاولات الأولى للاستقرار في مزاب:

لم يستقر الآباء البيض في مزاب بسهولة ويسر، فرغم ارتباط المنطقة بمعاهدة حماية مع السلطة الفرنسية منذ سنة 1853 فإن المبشرين لم يستطيعوا إنشاء مركزهم في مزاب إلا في 1884، بعد أزيد من سنة من الاحتلال المباشر له، و كان تنصيب مبشري افريقيا في مزاب نتيجة إثني عشر عامًا (1872-1884) من الجهود الحثيثة، وتعود المحاولة الأولى للتثبيت إلى عام 1872، حين استطاع المبشرون شراء أرض ومنزل في سفح مليكة، قرب غرداية، لكن هذا الشراء أثار انزعاج المزابيين لدرجة أنه تم تقديم شكاوي إلى السلطات الاستعمارية العليا، واضطر المبشرون للتخلي عن مشروعهم للتمركز في مزاب لبعض الوقت[4] ،ريثما تهدأ العاصفة المثارة ضد تواجدهم.

---

1 الحاج ابراهيم الحاج امحمد، **المؤسسة التنصيرية في الصحراء الجزائرية في نهاية القرن 19 م: مزاب والأهقار نموذجا**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر قسم التاريخ وعلم الاثار، جامعة قسنطينة2، 2012، ص 69

2 مسألة نزوح سكان مزاب من الشمال من الأخطاء التي رددها الكتاب الفرنسيون كثيرا في القرن التاسع عشر حتى أصبحت مسلمة لدى بعض المؤرخين الذين جاءوا بعدهم، فالمزابيون لم ينزحوا إلى مزاب من الشمال، بل كان مزاب مأهول بسكانه من عصور قديمة، ولجأت بعض العائلات إلى مزاب في مراحل تاريخية مختلفة لأسباب متعددة.

3 Chroniques Pères Blancs, n° 1903-12-00.101-1,1.5

4 Ibid

كانت محطة متليلي (32 كلم جنوب غرداية) التي أنشئت سنة 1874 أول ما تم إنشاؤه خارج المراكز الأوروبية، ومن هذه المدينة، قام الأبوان بولمي Paulmier وكيرمابون Kermabon برحلة استكشافية إلى المنيعة سنة 1875، وصفها الكاتب فيو بول Veuillot Paul بغير المهمة لكون تلك الطريق سبق أن سلكها هنري دوفيريي Henri Duveyrier وبول سولايي Paul Soleillet[1].

في 31 ديسمبر 1875 أرسل لافيجري ثلاثة مبشرين وهم الآباء: بولمي، وميموري Memoret، وبوشان Bouchand، يرافقهم خمسة مرشدين من التوارق يعرفون مسالك الصحراء، وانطلقت المجموعة من متليلي متجهة إلى بلاد التوارق أملا في الوصول إلى تمبكتو للتمركز في بلاد السودان، وأعلن لافيجري خبر توجه المبشرين إلى تمبكتو بفخر وحماس قائلا: "في هذه الساعة يوجد ثلاثة مبشرين من رجالنا في بلاد التوارق، وعما قريب سوف يدخلون إلى تمبكتو في عزم وتصميم ليستقروا في عاصمة السودان، أو يلقوا فيها حتفهم حبا في الحقيقة"[2]. وكانت أهداف هذه البعثة التنصيرية تتمثل في: الاستقرار في تمبكتو للتنصير في السودان الغربي، وشراء العبيد من تمبكتو، وتكوينهم في مدارس المنصرين، ليتولوا بعد ذلك مهمة نشر المسيحية في أفريقيا تحت رعاية الآباء لأنهم متأقلمين مع المنطقة وهم أدرى بأسرارها، وقد لقى المبشرون الثلاث حتفهم على يد مرشديهم التوارق في جانفي سنة 1876، في نواحي المنيعة بعد أيام من بدأ رحلتهم[3].

دعا الحاكم العام رئيس الأساقفة لافيجري إلى سحب رجاله من الصحراء، لكن المهمة التنصيرية بقيت في متليلي لسنتين إضافيتين، وفي فبراير 1878، تم استدعاء المبشرين وجمدت المهمة، وبهذا انتهت المرحلة الأولى لمشروع لافيجري للتوسع نحو الجنوب، ثم أُستأنفت المهمة التنصيرية في العقد التالي[4]، و في 28 سبتمبر 1883 قرر مجلس جمعية مرسلي افريقيا أن الآباء المعينين لمنطقة مزاب سيذهبون أولا إلى متليلي، حيث يمكنهم الإعداد لإنشاء محطة في مزاب، مع مراعاة جميع قواعد الحكمة[5]، وتوجه الآباء إلى متليلي بداية من نوفمبر1883، وكان مزاب قد تم إلحاقه منذ سنة، واستطلعوا أخبار مزاب بمختلف الأساليب وتواصلوا مع القوافل التجارية التي تتجه إليه من دواخل الصحراء، ولما علم مجلس المؤسسة

1 Paul Veuillot, **l'exploration du Sahara**, Augustin Challamel Editeur, Paris, 1895, p 140

2 مزيان سعيدي، مرجع سابق، ص344

3 العربي إسماعيل، مرجع سابق، ص110

4 Claire Fredj, Op. Cit, p 5 9

5 Chroniques Pères Blancs, n° : 1883-10-00.20-1,1.7

بخبر الانهيار المفاجئ لمنزل متليلي في 28 جانفي 1884، أرسل برقية إلى الآباء المشرفين على هذا المركز يطلب منهم استئجارا فوريا لمنزل في غرداية، وبالتالي الاستقرار النهائي في مزاب.[1]

4.3. إنشاء مركز مزاب للآباء البيض:

إن البدايات التنصيرية في مزاب كانت صعبة نظرا لتمسك أهله بموروثهم وتقاليدهم، ولقوة السلطة الروحية فيه، وقد كتب الأب شونيفاسChenivesse عام 1890 الملاحظة التالية حول عمله في المنطقة "في هذا البلد القاحل والمقفر، حيث يتم دفع التعصب الديني إلى أقصى حدوده، وحيث تُواجه الخدمة الرسولية باستمرار بأحكام مسبقة (préjugés) من جميع الأنواع "[2].

في مستهل استقرار الآباء في مدينة غرداية خلال شهر جانفي من سنة 1884 استأجروا منزلا في الحي اليهودي مقابل 250 فرنكا، ولم يكن يمكنهم الإقامة في أي بقعة أخرى من المدينة لأن المزابيين رفضوا تدنيس "ترابهم المقدس"[3]، وتحوز الهيئة النافذة في المجتمع من العزابة والجماعة سلاحا سياديا وفعالا ضد المخالفين لأوامرها هو نظام البراءة (التبريتْ)، ولا تتأخر عن استعماله كلما دعت الحاجة الى ذلك[4]، ونظام البراءة هو إجراء يشبه الحرمان الكنسي لدى المسيحيين، ويعتبر أشد عقوبة في المجتمع المزابي. ونتيجة لرفض السكان لهم لم يتمكن المنصرون من حيازة قطع أرض في جوار مدينة غرداية الا بعد تدخل السلطات العسكرية، وبمجرد استقرارهم في المدينة فتحوا مدرسة لتعليم أبناء الأهالي، ولم تشهد القبول المأمول، وأقاموا في الدار التي استأجروها من اليهودي إلى أن تحصلوا على قطعة أرضية في طرف الحي اليهودي، وبمساندة من القيادة العسكرية بدأوا ببناء مقرهم الجديد في 05 جوان 1888.[5]

ركزت المؤسسة التنصيرية في مزاب، كما في كل مكان، على نشاطين مهمين وهما التعليم والرعاية الصحية، واتسمت علاقة الآباء مع السلطات العسكرية في الصحراء بالتعاون الوثيق، وتوجت العلاقة بين الطرفين ببناء المستشفى المختلط في غرداية، الذي يضم جناحا مدنيا وآخر عسكريا خصص لجنود الجيش الفرنسي في المنطقة وما جاورها، وتمكن الآباء من ملء مدارسهم بالتلاميذ أحيانا بالإكراه وبشكل

---

1 Chroniques Pères Blancs, n° 1884-04-00.21-1,1.10

2 Claire Fredj, Op. Cit, p 61

3 Dahbia Abrous, **la Société des Missionnaires d'Afrique à l'Epreuve du Mythe Berbère kabyle- Aurès -Mzab**, Edition Peeters, Paris, 2007, p88

4 Claire Fredj, Op. Cit, p 61

5 الحاج إبراهيم الحاج امحمد، مرجع سابق، ص76

سلطوي بفضل مساعدة الإدارة العسكرية[1]، و مع ذلك لم تخل العلاقة بين الطرفين من بعض الخلافات أحيانا لما تتباين الرؤى والتطلعات، كاستفزاز الآباء للسكان ومحاولة تغيير قناعاتهم الدينية.

تعاونت السلطة العسكرية مع الآباء البيض في مراحل تطور مهمتهم بمزاب، وفي شهر مارس من سنة 1894 حضر القائد العام حفلة أقامها المنصرون لوضع حجر الأساس لبناء منزل في القطعة الأرضية التي اشتروها خارج أسوار مدينة غرداية على ربوة تيضفت، وتبادل الطرفان الزيارات والمجاملات، وتطلبت مصالح الآباء في كثير من المرات تدخلا مباشرا من السلطة العسكرية، وقد وجدوا صعوبة في الحصول على قطعة أرضية لبناء منزل للأخوات بعد قدومهن الى مزاب أواخر سنة 1892، وحرمهم سكان غرداية من ذلك، حتى تدخل الجنرال سوينز Swinez في المسألة ومكنهم من شراء قطعة أرض من أملاك العرش[2].

توسعت "مهمّة غرداية" Mission de Ghardaïa شيئا فشيئا، وبلغ عدد المشتغلين بها سنة 1891 ثلاثة وعشرون عضوا من آباء وإخوة ومعاونين، وبعد أن أنشأت السلطة العسكرية واحة الضاية على مدخل غرداية الشمالي الغربي، اشترى الآباء البيض بستانا فيها ليكونوا قريبين من السكان في فترة الصيف، وهكذا امتلك المنصرون بمزاب إلى غاية عام 1895 ثلاث قطع أرضية وبستانا، شرعوا في بنائها لتكون مراكز للمَهمّة الصحراوية.[3]

4. التطبيب التنصيري في مزاب:

1.4. الطب في مزاب قبيل وصول المنصرين:

في الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي في الجزائر كان التكفل بصحة السكان في عموم البلاد يتم على يد الطلبة والمرابطين الذين يمارسون العلاج بالطرق التقليدية القائمة على التجربة، وتوارث طرق التداوي جيلا بعد جيل، إضافة إلى انتشار السحر والشعوذة في الأوساط الشعبية، وكان موقف الجزائري تجاه الأمراض سلبيا، فالمكتوب يفسر كل مرض ووباء[4] ، وكان الطب في مزاب مثل باقي جهات الجزائر تقليدي الطابع وبسيط، ولا يتأسس على قواعد علمية، فالتراجع الحضاري للعالم الإسلامي خلف ممارسات في ميدان الطب هي أقرب للشعوذة والخرافة منها للطب، رغم الماضي المشرق للمسلمين في مختلف العلوم، و بقيت المعارف التي توصل إليها العلماء المسلمون في الطب على حالها لقرون طويلة، بل

1 Claire Fredj, Op. Cit, p62

2 الحاج إبراهيم الحاج امحمد، مرجع سابق، ص75

3 نفسه، ص77

4 فلة موساوي، **الواقع الصحي والسكاني في الجزائر اثناء العهد العثماني واوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871**، منشورات بن سنان، الجزائر، 2013، ص269

تم إهمالها في أحيان كثيرة، وأصبحت ممارسة الطب متاحة لكل من يستأنس في نفسه معرفة ولو بسيطة في الأعشاب و العقاقير وكتابة الحروز، فلا مدارس تكوين للأطباء والممرضين، ولا رقابة تمنح التراخيص لمن له الأهلية و الكفاءة، و كان الطب البسيط و العلاج التقليدي ممارسة تتوارثها الأجيال بشكلها البدائي، فكانت بعض الأمراض تجد لها الدواء المناسب بفضل التجربة الطويلة، والبعض الآخر تستعمل فيه أدوية قد تقضي على المريض أو تفاقم معاناته، و قد حاول الأطباء العسكريون الأوربيون الاستفادة من التجربة الشعبية المتراكمة عبر قرون. فدونوا هذه العلاجات في كتاباتهم، وكتبوا عن كل ما شاهدوه أو سمعوه من الأهالي، وعن أحوالهم الصحية، ونظامهم الغذائي. يقول الطبيب العسكري جوزيف ايڤي Joseph Huguet:" يجب الاعتراف إلى حد ما بأن التجربة هي التي وجهت هؤلاء السكان الأصليين بشكل كافٍ. هذا وحده يكفي لشرح سبب سعينا لإعطاء الخطوط الرئيسية لفنهم في العلاج[1]"، وقد سجل لنا هذا الطبيب الذي أرسل في مهمة الى كل من مزاب والمنيعة وورقلة ما بين سنتي 1897 و1898 مشاهداته وملاحظاته حول الأوضاع الطبية في مزاب، فوصف النظام الغذائي للأهالي بما يلي: "إن النظام الغذائي في مزاب في غاية البساطة، لأن الجميع يعرف الاعتدال الأسطوري للمزابيين: يتناولون في الصباح حساء، وفي المساء الكسكس التقليدي. وتتكون تحليتهم من فاكهة، هي في أغلب الأحيان تمر، مشروبهم هو الماء، ونادرا الحليب، ويُشرب حليب النوق بشكل استثنائي، وهو مخصص لمرضى فقر الدم. هذه هي القائمة اليومية المعتادة لأهل مزاب".[2] هذا النظام الغذائي البسيط انعكس على الصحة العامة، فأصبحت معدلات المرض والوفيات منخفضة للغاية وفق ما لاحظه الطبيب شارل أما Charles Amat، فالمرء يعاني من الحرارة، لكن حالته لا تكون سيئة جدا، ولا يموت الناس أكثر من أي مكان آخر، لأن متوسط الوفيات السنوي لا يتجاوز 2 في المئة[3]، وقد أكد الطبيب ايڤي الذي جاء بعده هذه الملاحظة.[4]

و ذكر الطبيب ايڤي كتب الطب المتداولة في مزاب في مستهل القرن العشرين، وقال أن مالكي هذه الكتب يحرصون على اخفائها باعتبارها كنزا ثمينا، والكتاب الأكثر تفضيلا هو كتاب الشيخ امحمد اطفيش الذي طبع في القاهرة سنة 1886(لم يذكر عنوان الكتاب، و غالب الظن أنه يقصد كتاب تحفة الحِب في أصل الطب)، وثمة كتب أخرى لمؤلفين مسلمين وهم، أحمد بن علي البوني، وابن الحاج

1 Huguet Joseph, "Les conditions générales de la vie au Mzab ": La médecine et les pratiques médicales indigènes, In : Bulletins et Mémoires de la Société d'anthropologie de Paris, V° Série, Tome 4, 1903, p 242

2 Huguet Joseph, Ibid, p 225

3 Charles Amat, **Le M'zab et Les M'zabites**, Challamel et Cie Editeurs, Paris, 1888, p271

4 Huguet Joseph, Op. Cit, p. 227

التلمساني، والشيخ محمد الحاج لكبير، والشيخ احمد الديربي، والامام جلال الدين السيوطي، والشيخ داود الأنطاكي، و محمد التونسي، وتباع هذه الكتب بمئة الى مئة و خمسين فرنك، ورغم أنها مطبوعة فهي ليست متداولة بشكل واسع في التجارة[1]، ويلاحظ أن أغلب هذه الكتب تقليدية الطابع، ألفت منذ قرون، وتجمع بين الخرافة والطب والتجربة الطويلة، وحتى كتاب الشيخ اطفيش الذي أُلف في أواخر القرن التاسع عشر، ورغم تطور علم الطب في الغرب في تلك الفترة، فقد كان صدى للمقاربة التقليدية لعلم الطب في فترة التراجع الحضاري للعالم الإسلامي.

2.4. التطبيب كوسيلة للإدماج والتنصير:

إن دارسي تاريخ الطب المعاصر انقسموا إلى رؤيتين: الأولى تقارب الموضوع من زاوية الإنجازات التطبيقية للطب التي خفضت نسبة الوفيات ورفعت متوسط العمر، وتبنى هذا الرأي المؤرخون المؤيدون للاستعمار، والثانية تعتبر الطب انعكاسا للمجتمع، فالمرض صورة اجتماعية، والممارسات الطبية مرآة للقيم الاجتماعية والأحكام المسبقة والمخاوف. واعتبرت المؤرخة الفرنسية ايفون توران Yvonne Turin في دراستها حول التعليم والطب والدين في الجزائر، أن المواجهة بين الأهالي والاستعمار في ميدان الطب خلال القرن التاسع عشر كان صداما بين الحداثة والتقليد، وقالت أن عددا من المؤرخين انتقدوا النزعة الاستعمارية، و لفتوا النظر إلى العواقب الوخيمة للاحتكاك الأوروبي على المجتمع و السكان، و إلى ما أحدثه الاستعمار من كوارث صحية في أوساط السكان، ورأت تورين أن الأوربيين قد تملكهم الغرور بتطور علومهم، فأصبحوا يستهجنون الطب المحلي ويعتبرونه همجيا ونوعا من الخرافة، فغدا الطب و الصيدلة رمزا للتفوق العرقي للأوروبيين2.وقد رأى المارشال هوبير ليوطي Hubert Lyautey أن الطب هو المبرر الوحيد للاستعمار، وتردد صدى هذا الرأي في كتابات عدد من مؤرخي الاستعمار، وكانت فكرة ليوطي حول علاقة الطب بالاستعمار منتشرة في أوساط رجال السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر وتم تطبيقها في الميدان، وتأسيسا على هذه الرؤية الاستعمارية مثل الطب بالنسبة للسلطات الاستعمارية في الجزائر مدنية وعسكرية أحد أهم وسائل السيطرة والتوسع، وأولته السلطات المدنية والعسكرية والدينية اهتماما خاصا، وعملت على انشاء المستوصفات والمستشفيات في المدن والقرى الجزائرية للتقرب من السكان ولفرض هيمنتها عليهم. يقول الدكتور مصطفى بوركايب: "أدرك العسكريون دائمًا أن الطبيب هو

1 Huguet Joseph, Ibid, p. 244

2 بتريشيا لورسن، **هويات استعمارية: الصور النمطية والتحيز والأعراق في الجزائر المستعمرة**، تر ابتسام خضرة، دار الأمير للنشر والتوزيع والترجمة، مرسيليا، فرنسا، 2022، ص187

أحد أقوى أدوات الاختراق، ربما يكون هذا صحيحًا بالنسبة للمسلم أكثر منه بالنسبة للأجناس الأخرى، لأنه يعتبر الطبيب وسيطًا بين الله والمريض"[1].

بداية من سنة 1874 فتحت مؤسسة مرسلي افريقيا عدة مستشفيات للأهالي بتوجيه من الكاردينال لافيجري، ولاقت تجربتها ترحيبا من السلطات الاستعمارية، وكتب موريس كولين في عام 1899 ما يلي: " لم يعد نجاح عمل المستشفيات المحلية موضع تساؤل (...) يرجع جزء كبير من هذا النجاح إلى تفاني الآباء والأخوات البيض الذين يتكلمون اللغة العربية بشكل يثير الإعجاب، وإيمانهم مبني على التفاني، وكانت هذه المؤسسات المحلية حتى عام 1904 تحت إشراف مؤسسة مرسلي افريقيا بشكل شبه حصري". [2] وكان أول مستشفى أسس على يد الكاردينال لافيجري هو مستشفى سانت إليزابيت في العطاف سنة 1874 بمساعدة من الجنرال وولف والحاكم العام ألفريد شانزيAlfred Chanzy، الأمر الذي يؤكد الدعم الذي لقيه النشاط التبشيري من قبل عدد من رجال السياسة الفرنسية في الجزائر رغم الطابع العلماني المعلن للسلطة الفرنسية، وألهمت هذه الفكرة الحاكم العام جول كامبونJules Cambon (1891-1897) الذي أسس مستشفيات مشابهة، وافتتح مستشفى سانت أوجان في ورزان بمنطقة القبائل عام 1894، وسانت أوغستان في أريس عام 1895، ومستشفى بسكرة عام 1896، وسانت اندري بالأبيض سيد الشيخ سنة 1898، وكان الحاكم العام يأمل في "التأثير المهدئ" لمستشفى سانت أندري بعد افتتاحه، و قد استقبل العديد من الحجاج القادمين من الصحراء والمغرب[3]، وهكذا استعملت الخدمات الطبية ومؤسسات العلاج العام كأداة لتسويق صورة إنسانية مسالمة للاستعمار لدى الجزائريين لتخفيف مقاومتهم له، و لتسليمهم بالأمر الواقع. لكن هذه المستشفيات فتحت غالبا في مراكز السكان الأوروبيين، كما أن تنظيمها نفسه كان يبعد الجزائريين عنها بسبب فرض الالتزام بتناول الطعام المشترك، والخضوع لنظام خاص، والخوف من التشريح بعد الموت والتشويه، كما أن المسلمين لم يقبلوا على العلاج في هذه المستشفيات، بل كانوا يتجنبونها أحيانًا.[4]

3.4. فتح المستشفى الأهلي لغرداية:

عندما استقر الآباء البيض في غرداية ركزوا نشاطهم على التعليم ثم التطبيب كعادتهم في كل مكان تواجدوا به، ولم يتلق المنصرون القبول الذي كانوا يأملونه في غرداية رغم محاولاتهم المتكررة لاختراق

1 Mustapha Bourkaib, **Contribution à l'Etude de l'Assistance Médicale aux Indigènes d'Algérie**, Adolphe Jourdan Editeur, Alger, 1915, p 59

2 Ibid, p28

3 Claire Fredj, Op. Cit, p 57

4 Mustapha Bourkaib, Op. Cit, p25

النواة الصلبة لمجتمع مزاب، ولم يكن للآباء البيض علاقات كافية مع السكان الأصليين خاصة مع المزابيين، وقدأعرب الأب بارتيليمي سنة 1890 عن أسفه لعدم تعاونهم مع العمل التمديني لفرنسا، وبهدف التقرب من السكان فكرت المؤسسة التنصيرية في مشروع انشاء مستشفى أهلي يعزز عملها التطبيبي، علاوة على النشاط التعليمي الذي بدأته من اليوم الأول لوصولها الى غرداية. و كان أول مستشفى فرنسي بني في مزاب هو المستشفى العسكري الذي افتتح في مدينة غرداية سنة 1884، بعد أقل من سنتين من احتلال مزاب، و خصص لعلاج عناصر الجيش الفرنسي في المنطقة وما جوارها، بسعة تقدر باثني عشر سريرا، وشكل جناحا منفصلا في الطرف الشمالي لمبنى الإدارة الاستعمارية في غرداية (البرج)، إضافة إلى مهمته الأساسية، استقبل أيضا عددا متواضعا من المرضى المدنيين من سكان المنطقة ومن الوافدين عليها، فخلال عام 1896 عولج في المستشفى العسكري مئة وعشرين مريضا، وفي السنة الموالية استقبل مئة وستة وخمسون مريضًا، ومن هؤلاء المرضى تسعة من المدنيين فقط. وتم علاج 58 حالة جراحية، وكان أغلب المرضى العسكريين من القوات التي تمر على غرداية في طريقها إلى الجنوب أو عائدة منه، بينما كان عدد جنود الحامية العسكرية المقيمة في البرج قليلا، ويتمثل في مئة وواحد وتسعين جنديا، وسبعة ضباط صف، وعشرة ضباط[1].

قدمت الحكومة العامة للبعثات التنصيرية المشرفة على المستشفيات إعانات مالية لتشجيعها على بناء المزيد من المستشفيات والمستوصفات، وفي غرداية تم توقيع اتفاقية بين مسؤول من البعثة التنصيرية والقائد العام لفرقة الجزائر العاصمة في 30 نوفمبر 1895 تعهدت فيها جمعية مبشري افريقيا ببناء مستشفى للأهالي والإشراف عليه، مقابل إعانة قدرها 000 60 فرنك، ودفع سعر ثابت للرعاية لكل مريض في المستشفى، وكان من المقرر أن تنتهي الاتفاقية في عام 1921.[2] وقد تزامن التوسع الاستعماري الفرنسي في الصحراء مع إنشاء مستشفيات للأهالي، وكان ذلك شاهدا على التعاون الوثيق بين الحكومة والبعثات التنصيرية والجيش، وبدأ ذلك التعاون قويا في مزاب بشكل خاص[3].

افتتح المستشفى الأهلي الذي أطلق عليه اسم سانت ماري مادلين Sainte Marie-Madeleine في 22 ديسمبر 1897، وقد تمت أشغال إنجازه تحت رعاية الآباء البيض وبمساعدة تقنية من قسم الهندسة للجيش، ويقع في الجنوب الغربي من مدينة غرداية في منطقة تيضفت على أرض صخرية، بتكلفة قدرت بـ 37033 فرنكا، وأريد له أن يكون حجر الزاوية في المشروع التنصيري في مزاب والصحراء، ومحورًا لسياسة الحكومة العامة تجاه الأهالي، يتكون المستشفى من قاعتين فسيحتين، سعة كل واحدة منهما ثلاثون

1 Huguet Joseph, Op. Cit, p 253

2 Mustapha Bourkaib, Op. Cit, p59

3 Claire Fredj, Op. Cit, p57

سريرا، مخصصتان للسكان المحليين، واحدة للذكور وأخرى للإناث، إضافة إلى عدة غرف للمرضى الأوربيين[1]، وزود بمباني ملحقة، منها صيدلية كبيرة، ومخازن، وغرفة لتبديل الملابس، وأخرى للغسيل، ومطبخ، وغرفة للعمليات تقع بجانب قاعة الرجال[2].

ارتفعت احتياجات المستشفى العسكري الواقع في البرج بعد الشروع في احتلال أقصى الجنوب في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكان هناك حديث عن توسيعه ببناء طوابق أخرى فوقه أو نقله إلى المبنى الذي يشغله قسم شؤون الأهالي، ثم استقر الرأي لأسباب اقتصادية على إضافة قسم عسكري للمستشفى الأهلي ليصبح مختلطا، ويستقبل أيضا العسكريين في جناح منفصل، وانتهت أشغال البناء في جوان 1900[3]. وقد حولت السلطات الاستعمارية المستشفى العسكري من البرج الى تيضفت لسببين: ضيق المساحة في مبنى الإدارة الاستعمارية وعدم قدرتها على استيعاب المزيد من الأسرة بعد ارتفاع احتياجات المستشفى بسبب الغزو العسكري للمناطق الواقعة جنوب المنيعة، ولتقليل النفقات، نظرا لأن الآباء تكفلوا بجزء من مصاريف البناء وبتوفير المرضين والممرضات.

5. المنصرون والرعاية الطبية في مزاب وردود فعل السكان حيال نشاطاتهم:

1.5. الرعاية الطبية لمؤسسة مرسلي افريقيا في مزاب: 1897-1910:

مارس الآباء البيض النشاط التطبيبي من أول يوم استقروا فيه في مزاب، لكن العمل المنظم والموسع في الرعاية الصحية بدأ مع فتح المستشفى الأهلي أواخر سنة 1897، وكانوا يأملون أن يكون المستشفى مكانا خصبا للتأثير على الأهالي الذين يزورونهم ويتلقون العلاج والرعاية منه، وخلال الأشهر الخمسة الأولى بعد افتتاحه، استقبل المستشفى الأهلي 131 مريضا من سكان غرداية ومن القبائل البدوية التي تتردد على المنطقة، منهم 57 رجلاً و23 امرأة و51 طفلاً[4] . أما في سنة 1901 تمت معالجة 2495 مريضا في المستشفى الأهلي خلال الثلاثي الأولى، مقابل 3424 مريضا في الثلاثي الثاني من نفس السنة[5]، وعلى العموم رغم أن سعة المستشفى تبلغ 80 سريرا فقد كان معدل المرضى لا يتجاوز 12 شخصا

1 Ibid, p66

2 Huguet Joseph, Op. Cit, p253

3 Claire Fredj, Op. Cit, p68

4 Huguet Joseph, Op. Cit, p. 253

5 مكتبة الشيخ عمي سعيد بغرداية، رصيد حواش عبد الرحمان، الملف رقم 1310، وثيقة من 6 صفحات، مؤرخة في 1930/03/28، عنوانها: الارسالية الكاثوليكية في غرداية، ص 2

في اليوم حسب الدكتور مصطفى بوركايب.[1] مع الإشارة إلى أن عدد المرضى المدنيين الأوربيين ضئيل جدا بسب قلتهم في الجنوب الجزائري في تلك الفترة، فالطبيب ايفي يذكر أنه عالج ثلاثة أوربيين مدنين فقط في فترة خدمته في مستشفى غرداية.[2] كان طبيب المستشفى ضابطا عسكريا معينا من قبل السلطة العسكرية يتلقى أجرة تقدر بـ 1200 فرنك تدفها جمعية مرسلي افريقيا[3]، وتولت مؤسسة مرسلي افريقيا الإدارة العليا للمستشفى، واقتصرت مهمة الطبيب العسكري في علاج المرضى وتوجيه الممرضات دون أن تكون له عليهن سلطة، فهن يخضعن لتعليمات مؤسستهن الأم.

بعد مفاوضات مضنية اشترى الآباء البيض قطعة أرض في واحة غرداية سنة 1903بهدف المحافظة على استمرار نشاطهم طوال فترات السنة، فبنوا فيها مقرا لهم، وشرعوا في تقديم الرعاية الصحية في الفترة الصيفية التي يقضيها السكان في الواحة كل سنة[4]، وهو التقليد الذي حافظوا عليه منذ قرون، و قد استخدم المنصرون كل الأساليب الممكنة للتأثير على الأهالي، وكانوا يخرجون في جولات ميدانية في مختلف أحياء قصر غرداية، وفي القرى المجاورة لعلاج المرضى في بيوتهم، وبطلب من السكان أصبحوا يتنقلون إلى بعض منازل مرضاهم لعلاجهم، ففي سنة 1902 استدعاهم أحد سكان بريان، فانتقلت مجموعة من الآباء والأخوات إليه عارضين خدماتهم الطبية[5].

كان من عادة الارساليات التنصيرية توفير صيدلية في مقرات التنصير تقدم الأدوية المختلفة للأهالي، كما توزع تلك الأدوية على المحتاجين إليها أثناء الجولات الميدانية التي ينظمها الآباء في مختلف المناطق للتقرب أكثر من السكان ولتطبيع العلاقات معهم، ويقصدون أيضا خيم البدو المتواجدة في أطراف قرى مزاب لمداواة مرضاهم ومنح الأدوية لهم، وقد بلغ عدد المستفيدين من هذه الخدمات ما يقدر بـ220 فردا سنة 1890[6].

يعد اتقان اللهجات التي يتكلم بها الجزائريون في مختلف المناطق أحد أهم وسائل الاختراق في مشروع لافيجري التنصيري، فالأخت فيرجيني مثلا استطاعت أن تتواصل مع الأهالي بغرداية بفعالية وتكسب ثقتهم بفضل اتقانها للعربية، كما استفادت مؤسسة مرسلي افريقيا من خدمات الأخوات اللاتي

---

1 Mustapha Bourkaib, Op. Cit, p60

2 Huguet Joseph, Op. Cit, p229

3 Claire Fredj, Op. Cit, p70

4 مكتبة الشيخ عمي سعيد بغرداية، رصيد حواش عبد الرحمان، الملف رقم 1310، وثيقة من 6 صفحات، مؤرخة في 1930/03/28، عنوانها: الارسالية الكاثوليكية في غرداية، ص2

5 داود عمر، مرجع سابق، ص164

6 الحاج ابراهيم الحاج امحمد، مرجع سابق، ص 79

يتقن اللسان البربري الذي يتكلم به المزابيون.[1] ولم يتورع الآباء البيض عن تعميد المشرفين على الوفاة من المرضى، وقد سجّلت في سنة 1902حالتان في مستشفى غرداية: الأولى على زنجي من واحة الضاية القريبة، عمره 17 سنة، أصيب بشلل عام، ومكث في المستشفى نحو شهر، وآخر طفل عمره 12 سنة، من بدو الأغواط، فتم عزلهما في زاوية بعيدة عن القاعة الكبيرة التي يستقبل فيها المرضى، وموورست عليهما شعائر التعميد الكاثوليكي قبل وفاتهما.[2]

بعد12 سنة من النشاط، ونتيجة لقلة مرتادي المستشفى خلافا لما كان متوقعا، تم إغلاق المستشفى العسكري في 17 جوان 1910 بعد تقليص عدد الحامية وتبعه اغلاق كلي لمستشفى سانت ماري مادلين[3]. يقول الدكتور مصطفى بوركايب: " في ظل هذه النتائج التي تعكس العجز، طلبت جمعية الآباء البيض إنهاء الاتفاقية التي تلزمها وحصلت عليه، مقابل التخلي عن مستعمرة الجنوب في جزئها الأكبر من الإنشاءات وتسليم معدات المستشفى، وتم تحويل المبنى لمستوصف محلي"[4].

2.5. دور الأخوات البيض في التطبيب:

كرس الآباء البيض وقتهم للتعليم في المقام الأول، وتولوا مسؤولية الإشراف على المستوصف أيضا، لكن الأخوات البيض تخصصن أكثر في الخدمات الصحية، ويعتبر عملهن أيضا أعمق تأثيرا لأنهن يستطعن - بشكل عام - اختراق المناطق الداخلية للأهالي بسهولة أكبر، ودرجت الارساليات التنصيرية على وضع كل مستوصف يتم إنشاؤه تحت مسؤولية راهبة لها خبرة بالأمراض السائدة في المنطقة التي تعمل بها وطرق علاجها.[5]

بدأ النشاط التطبيبي للأخوات البيض حين وصلن لأول مرة الى غرداية وفتحن مشغلا ومستوصفا صغيرا[6]، ففي 27 ديسمبر 1892، وصلت الأم جوزفين، والأخت لويز، والأخت سانت لوك، والأخت كلوتيلد، إلى غرداية. وأقمن في منزل يقع في حي العفافرة، وبدأن على التو في ممارسة التطبيب في مدخل مسكنهن، وفي 21 جانفي 1893 فتحن في دار قريبة مشغل لتعليم الخياطة لفتيات الحي، وبقين في حي العفافرة قرابة السنتين، ثم انتقلن للإقامة في المسكن الذي هُيأ لهن في مستشفى حي تيضفت المختلط قبل اتمام بنائه.

---

1 Claire Fredj, Op. Cit, p72

2 Chroniques Pères Blancs, n° : 1902-04-00.94-7,1

3 مكتبة الشيخ عمي سعيد بغرداية، رصيد حواش عبد الرحمان، الملف رقم 1310، وثيقة من 7 صفحات، بدون تاريخ، عنوانها: ذكريات عن مركز غرداية بقلم أخت بيضاء، ص3

4 Mustapha Bourkaib, Op. Cit, p61

5 Claire Fredj, Op. Cit, p71

6 Chroni -Trim 1903-12-00.101-1,1.5

وفي نفس الوقت كانت الأشغال جارية لبناء مدرسة الآباء البيض في باب الراعي شمال قصر غرداية، وعند فتح المستشفى الأهلي المختلط في نهاية سنة 1897 أوكلت مهمة رعاية المرضى للأخوات البيض[1].

في الفترة الأولى من إنشاء المستشفيات الأهلية كان تكوين المتطوعات في جمعية مرسلي افريقيا بسيطا ثم تدرج في التحسن بمرور الوقت، و كانت الراهبات الأوائل اللواتي عملن في مستشفى العطاف قد أكملن للتو تكوينا غير معمق في التمريض، وسرعان ما أصبح تكوينهن أكثر احترافا في عقد الثمانينيات من القرن 19، وفي عام 1910حددت دساتير البعثات الإفريقية أن "الأخوات ستعطى لهن دروسا في الصيدلة أو الطب، ويوجهن للمستوصفات والمستشفيات، و سيتم تشجيع تكوين الممرضات للحصول على أكبر عدد ممكن من شهادات التمريض "كما لم يكن الآباء والأخوات أطباء بالمعنى الحرفي للكلمة ولم يدعوا ذلك، وتقول أخت بيضاء من ارسالية غرداية "ان الله جدير بأن يبارك جهودنا بشفاء من نعالجهم دون أي تناسب مع معارفنا الطبية [2].ورغم محدودية المعرفة الطبية للأخوات والآباء البيض إلا أن الأهالي كانوا يفضلونهم على الأطباء العسكريين لأنهم توقعوا أن يجدوا فيهم قدرا أكبر من كتم أسرارهم وصون خصوصياتهم[3].

تولت الأخوات البيض مهمة التمريض في المستشفى الأهلي لغرداية بقسميه المدني والعسكري، وتكون الطاقم الطبي للمستشفى من طبيب وممرضة عسكريين إضافة الى ست ممرضات من الأخوات البيض، وبمجرد افتتاح الجناح العسكري في المستشفى اكتظ بالعسكريين من حامية غرداية ومن الفرق المشاركة في اختراق الجنوب الجزائري وبلغ عددهم نحو 150 رجل[4]. تمكنت الأخوات البيض من تعميد 150 طفل على الأقل سنة 1894 بفضل السهولة التي يستطعن بها دخول المنازل مقارنة بالآباء[5]. وفي صيف 1903 تمكنت الأخوات من الحصول على بيت في واحة غرداية ليواصلن مهمتهن قرب المزابيين الذين ينتقلون صيفا للإقامة في بساتينهم، وكانت تلك إحدى المفاجآت غير المنتظرة التي استاء منها السكان، وكان عمل المنصّرات أقوى من جانب التواصل مع النساء والأطفال نظرا لتمكنهن من الاتصال

1 مكتبة الشيخ عمي سعيد بغرداية، رصيد حواش عبد الرحمان، الملف رقم 1310، وثيقة من 7 صفحات، بدون تاريخ، عنوانها: ذكريات عن مركز غرداية بقلم أخت بيضاء، ص1

2 Claire Fredj, Op. Cit, p72

3 Huguet Joseph, Op. Cit, p237

4 Claire Fredj, Op. Cit, p74

5 Chroniques Pères Blancs, n° : 1895-01-00.65-6,1

بهم بسهولة أكبر، وكن يقمن بجولة داخل المدينة ويدخلن إلى المنازل لعلاج الأطفال وتقديم الحلوى لهم، وللحديث إلى النساء ومحاولة اقناعهن بفوائد إرسال أطفالهن إلى مدرسة الآباء[1].

3.5. ردود فعل السكان تجاه النشاط التنصيري للآباء البيض في مزاب:

أجمعت أدبيات الآباء البيض أن سكان غرداية قاوموا لفترة طويلة كل محاولات المنصرين للتقرب منهم أو اختراقهم، كما رفضوا خدماتهم بشدة، ووصفت هذه الأدبيات المزابيين بالتشدد، وشبهتهم بالطائفة اليهودية المتشددة المسماة بالفريسيين[2]، فهم في نظرهم فريسيو الإسلام.[3]وقد سهرت السلطة الدينية في مزاب على الحفاظ على القيم الإسلامية، وحثت الناس على مقاطعة نشاطات جمعية مرسلي افريقيا.

ولم يكن للزيارات الميدانية التي قام بها المنصرون تأثير كبير على السكان، وتروي إحدى الراهبات عن زيارة تفقد في الحي المزابي في غرداية: "عندما طرقنا الباب، فوجئنا بسماع هذه الكلمات من وراء الباب" ...لا تأتي! ... لا، لا، لا أريد ذلك، استمر في طريقك، الجميع بخير في المنزل"، وواجهت الأخوات البيض هذا النوع من المواقف في عدة مناسبات، فقد كانت الأبواب مغلقة أمامهن. ورغم رفض السكان لهم أصر الآباء والأخوات على تحقيق اختراق للمجتمع المحلي في محاولة لتغيير الانطباع السائد في الوعي الجمعي للأهالي عن رجال ونساء الكنيسة الكاثوليكية والمسيحيين بشكل عام، واستمروا في تنظيم جولات لأحياء مدينة غرداية ولقرى مزاب، دون أن يثني عزمهم رد فعل الأهالي حيالهم، وقد لاحظت إحدى الاخوات البيض هذا النفور منهن في عام 1898 قائلة: "نرى أكثر فأكثر مدى ضرورة الزيارات لنكون معروفين (من قبل الأهالي)، أو لتبديد الأحكام المسبقة غير المواتية للمزابيين" لذلك بدت فكرة فتح مستشفى للأهالي مناسبة و تحقق الأهداف البعيدة للمنصرين، ويمكنها أن ترفع قليلا من مكانتهم في عيون سكان مزاب. ويشارك الطبيب ايفي نفس الرؤية، فوفقا له «كان تأسيس مؤسسة من هذا النوع ضروريا في مزاب أكثر من أي مكان آخر"[4].

---

1 الحاج ابراهيم الحاج امحمد، مرجع سابق، ص 80

2 الفريسيون فرقة من فرق اليهود، وهم متعصبون أشد التعصب، يقاومون كل تطور، ويتمسكون بحرفية النص، ويعتقدون أن التوراة بأسفارها الخمسة خُلقت منذ الأزل، وكانت مدونة على الألواح. ينظر: عبد المجيد همو، الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات، ط2، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2004، ص54

3 Dahbia Abrous, Op. Cit, p87

4 Claire Fredj, Op. Cit, p64

لقد أدرك سكان غرداية أن مسألة التنصير ما هي إلا عمل جاد يهدف إلى المساس العميق بجذورهم الثقافية، ما دفع المؤسسات الاجتماعية في مزاب لمقاومة ذلك بشتى الوسائل، مع محاولة إيجاد بدائل لمجالات نشاط الآباء البيض، و مارست رقابة فعالة على الأفراد الذين يتعاملون مع المنصرين، كما عملت على توعية الأهالي بخطورة الاستسلام لمخططات المؤسسات التنصيرية، و انعكس ذلك على حصيلة العمل التنصيري الذي كانت مخيبا لآمال القائمين عليه رغم استغلال المنصرين لفقر السكان، وتواضع مستواهم التعليمي، الأمر الذي جعل الآباء يتخلون تدريجيا عن محاولات التحويل الديني الصريح، ويكتفون بالعمل الخيري وتسويق البعد الانساني على مجمل الأنشطة التي كانوا يقومون بها، وبدأ ذلك جليا عندما انصب اهتمامهم بالتمريض وفقا لتوصيات مؤسس جمعيتهم لافيجري[1].

من الحوادث التي تعكس مدى رفض السكان لعمل المنصرين ما وقع في مدينة بني يزجن سنة 1902، حينما حاول الآباء والأخوات البيض تنظيم جولة في قصر بني يزجن لمداواة المرضى مجانا إثر حصولهم على رخصة من السلطات العسكرية، وفور انتشار الخبر تصدى الشيخ أطفيش، وأعضاء هيئة العزابة وضمان العشائر للأمر، ورفضوا دخول المنصرين للمدينة، وبعد تدخل السلطات العسكرية وتفاوضها مع الضمان، سُمح للآباء والأخوات بالتمريض خارج أسوار القصر، ولم يجدوا الإقبال المأمول، فاضطروا للانصراف.[2] وقد رفض سكان بني يزجن فتح مقر للآباء البيض في مدينتهم، وراسلوا السلطات العليا في ذلك، وأصروا على الرفض حتى ألغى المنصرون مشروعهم لفتح فرع لنشاطهم هناك. وقد لاحظت الطبيبة بولي غارنيي Poli-Garnier التي أقامت في مزاب لمدة شهر أن النساء المزابيات لا يزرن المستشفى أبدا: "خلال شهر إقامتي في غرداية، كما تخبرنا، كان من الممكن بالنسبة لي أن أدرس مسألة تطبيب النساء المزابيات، وقد تم ذلك بسرعة، لأن المساعدة هناك لا شيء، فبإرادة المزابيين السيئة. لا تخرج المرأة المزابية أبدًا حتى تصل إلى سن محترم يبلغ حوالي 50 سنة. لذلك لم تأت أبدًا أي مزابية إلى استشارة الطبيب، ولا يرتاد مستوصف غرداية من الإناث إلا الزنجيات والبدويات والفتيات المزابيات دون سن العاشرة المصابات بأمراض العيون والجلد فقط"، وتضيف: "لا يتم استدعاء الطبيب مطلقاً لعلاج امرأة مزابية، مهما كانت خطورة المرض، وبالنسبة للولادات يُسمح للنساء والأطفال بالاستسلام دون محاولة للإنقاذ غير الصلاة، علاوة على ذلك من الصعب جدًا اختراق المزابيين. لقبي كدكتورة لم يفتح لي أبوابا كثيرة "[3] ، ويحتفي تقرير للآباء البيض بالنتائج المتواضعة التي حققها المنصرون في مزاب بقوله: "في 14 جانفي المقبل (1904)، سيكون قد مر عشرون عامًا على تنصيب جمعية مرسلي افريقيا في مزاب. لابد من

1 داود عمر، مرجع سابق، ص 160

2 نفسه، ص 167

3 Mustapha Bourkaib, Op. Cit, p61

الاعتراف أن نتائج نشاطها لا تزال تبدو للوهلة الأولى متواضعَة جدًا، ومع ذلك، إذا نظر المرء إليها باهتمام، يجب أن يعجب بأهميتها، ولتقدير هذه النتائج بشكل صحيح فمن العدل جدًا أن نتذكر طبيعة المزابيين، وكيف كانوا دائمًا غير متسامحين وغير قابلين للاختراق"[1]. وحتى بعد ثلاثين سنة من استقرار مرسلي افريقيا في مزاب، استمر نفور الأهالي من المنصرين، فالتقرير السنوي للآباء البيض لعام 1915-1916 يصف المزابيين بأنهم "القنافذ الحقيقية للإسلام، والتي لا نعرف كيف نأخذها". كما جاء في تقرير آخر يتحدث عن بلدة بني يزجن: "إنهم يستقبلوننا دائما بنفس اللامبالاة الممنهجة، بل يجب أن أقول بنفس الازدراء والفخر".

رغم ان الاتفاقية التي أبرمها الآباء البيض مع الجيش كان من المفترض أن ينتهي أجلها عام 1921، إلا أنهم اضطروا الى غلق المستشفى الأهلي سنة 1910 بعد 12 سنة فقط من افتتاحه، يقول الدكتور بوركايب " ولكن هذا المستشفى، الذي تم بناؤه لـ 80 مريضًا، لم يحقق نجاحًا يذكر إذ لم يتجاوز متوسط عدد المرضى الذين يدخلون المستشفى اثني عشر مريضا يوميًا (يهود من مزاب، زنوج و عابرون من أهل قورارة، رعاة رحل) ، ولطالما رفض المزابيون الاستفادة من مزايا العلاج في المستشفيات، معتبرين بقاءهم منغلقين على التأثير المعنوي والعمل الطبي الفرنسي من دواعي الشرف.[2] و عليه فمن من الواضح أن المزابيين رفضوا المشروع التنصيري رفضا قاطعا على جميع الجبهات: لا للمدرسة، لا للدين، لا للأدوية،[3]

- **خاتمة**

توصلنا في دراستنا هذه إلى النتائج التالية:

– تكفلت جمعية مرسلي افريقيا بفتح المستوصفات والمستشفيات للأهالي الجزائريين في مختلف جهات الجزائر بالتعاون مع السلطات الاستعمارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين، مستغلة انشغال السلطات الاستعمارية بقمع ثورات الجزائريين وبالتوسع نحو الجنوب الجزائري، في محاولة منها الى تسويق وجه إنساني وسلمي للوجود الفرنسي بالجزائر خلافا للصورة العسكرية الصدامية المعتادة لجيش الاحتلال الفرنسي.

– كثفت الحركة التنصيرية نشاطها في منطقة مزاب مثل ما فعلت في بلاد القبائل والأوراس بناء على نظرة تمييزية للمجتمع الجزائري تفرق ما بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية، وتفترض أن

1 Chroniques Pères Blancs, n° 1903-12-00.101-1,1.5

2 Mustapha Bourkaib, Op. Cit, p60

3 Dahbia Abrous, Op. Cit, p92

الناطقين بالبربرية أقل تمسكا بالإسلام من غيرهم، محاولة بذلك بث الخلافات بين مكونات المجتمع الجزائري.

– مثل التطبيب أحد أهم الأدوات التي استعملها المنصرون في محاولاتهم الحثيثة لاختراق المجتمع الجزائري وتحويله إلى الدين المسيحي تمهيدا لإدماجه في الوسط الاستيطاني الأوروبي، مستغلين في سبيل ذلك تطور علم الطب في أوروبا وجهل السكان بالأساليب الحديثة للتطبيب.

– رغم أن الحركة التنصيرية حاولت بمثابرة وبحماس شديد إدماج المجتمع الجزائري بمختلف الطرق والأساليب، لكن حصيلة عملها الطويل كانت ضئيلة بالمقارنة مع الجهد المبذول والمدة الزمنية الطويلة.

– حاولت المهمة التنصيرية بكثير من الحذر اختراق مجتمع مزاب لكن مهمتها فشلت لأنها تعاملت مع صرح اجتماعي منظم ومنيع، ووجدت نفسها تواجه مجتمعا متمسكا يرفض كل ما يمت للاستعمار بصلة في مقاومة سلمية شاملة للاحتلال ولكافة مظاهره، وقد قاومت منطقة مزاب التنصير الفرنسي على عدة جبهات: المدرسة، والدين، والتطبيب.

– استخدم المنصرون في مزاب الأخوات البيض للدخول إلى الأوساط النسائية واختراقها، وبعد جهود حثيثة استمرت لسنوات طويلة حققت الأخوات البيض اختراقات بسيطة، واستطعن نيل ثقة حذرة من السكان دون أن يصلن إلى الهدف المنشود، وهو تحويل أكبر عدد ممكن من الأهالي الى المسيحية.

و لا يزال موضوع نشاط التنصير في مختلف مناطق الجزائر ووسائل عمله يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتقصي، لاسيما بعد نشر الأرشيف الثري للكنيسة الكاثوليكية في روما وإتاحته للباحثين على الانترنت.

- **قائمة المراجع:**

أولا: باللغة الأجنبية:

أرشيف حواش عبد الرحمان بمكتبة عمي سعيد بغرداية

1. Amat Charles, **Le M'zab et Les M'zabites**, Challamel et Cie Editeurs, Paris, 1888
2. Bourkaib Mustapha, **Contribution à l'Etude de l'Assistance Médicale aux Indigènes d'Algérie**, Adolphe Jourdan Editeur, Alger, 1915
3. http://www.msv3.org/Bases2.aspx
4. Huguet Joseph, "Les conditions générales de la vie au Mzab : La médecine et les pratiques médicales indigènes", In : Bulletins et Mémoires de la Société d'anthropologie de Paris, V° Série, Tome 4, 1903

5. Pères (Les) Blancs, chroniques trimestrielles (1879-1909), rapports rassemblés des extraits de journal des stations. Fonds numérisé de la Société des Missionnaires d'Afrique. Rome. https://mafrome.org/archives-des-mafr/

6. Piolet Jean Babtiste : Nos Missions et Nos Missionnaires, Librairies Bloud et Cie, Paris,1904

7. Veuillot Paul, **l'exploration du Sahara**, Augustin Challamel Editeur, Paris, 1895

8. Abrous Dahbia, **la Société des Missionnaires d'Afrique à l'Epreuve du Mythe Berbère kabyle- Aurès -Mzab**, Edition Peeters, Paris, 2007

9. Ageron Charles Robert, **Les Algériens musulmans et la France** (1919-1871), Presses Universitaires de France, Paris, 1968

10.Fredj Claire, "Soigner les populations au Sahara : l'hôpital mixte de Ghardaïa (1895-1910)", Dans Histoire et missions chrétiennes 2012/2 (n° 22)

ثانيا: باللغة العربية:

11.ابن منظور جمال الدين محمد، **لسان العرب**، ج 5، دار صادر، ط3، بيروت، 1994

14.اسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

15.بقطاش خديجة، **الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871**، منشورات دحلب، الجزائر، 2007 .

16.البوعبدلي المهدي، **الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي: متفرقات**، عالم المعرفة، الجزائر، 2013.

17.الحاج امحمد الحاج إبراهيم، **المؤسسة التنصيرية في الصحراء الجزائرية في نهاية القرن 19 م: مزاب والأهقار نموذجا**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر قسم التاريخ وعلم الاثار، جامعة قسنطينة2، 2012

18.الخضري أمل عاطف محمد، "**التنصير في فلسطين في العصر الحديث**"، رسالة ماجستير في العقيدة الإسلامية بكلية أصول الدين، الجامعة الاسلامية غزة، فلسطين، 2004،

19.زوزو عبد الحميد، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900**، دار هومة، الجزائر، 2013 .

20.الزيني محمد عبد الرحيم، **الاستشراق والتنصير: رؤية موضوعية**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب، سلطنة عمان، 2010.

21.سعيدي مزيان، **النشاط التنصيري للكاردينال لافيجري في الجزائر 1867-1892**، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر

22.عبد الحميد عمر أحمد مختار، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ج2، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2008.

23.عمر داود: **الحركة التبشيرية في الجزائر، نشاط الآباء والأخوات البيض في غرداية أنموذجا: مقاربة سوسيو-تاريخية**، دار نزهة الألباب، الجزائر، 2016.

24.الفهد عبد العزيز **التنصير الطبي الخفي في البلاد الإسلامية**، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2005

25.لورسن بتريشيا، **هويات استعمارية، الصور النمطية والتحيز والأعراق في الجزائر المستعمرة**، تر ابتسام خضرة، دار الأمير للنشر والتوزيع والترجمة، مرسيليا، فرنسا، 2022.

26.موساوي فلة، **الواقع الصحي والسكاني في الجزائر اثناء العهد العثماني واوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871**، منشورات بن سنان، الجزائر، 2013.

27.همو عبد المجيد، **الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات**، الأوائل للنشر والتوزيع، ط2، دمشق، سوريا، 2004.

28.وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، **الموسوعة الفقهية الكويتية**، ج12، دار السلاسل، ط02، الكويت،1989.

29.وعلي محمد الطاهر، **التعليم التبشيري في الجزائر من 1830إلى 1904**، منشورات دحلب، الجزائر، 2009.